إسهامات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين في الحفاظ على الهويّة الوطنيّة من خلال جريدتي الشّهاب والبصائر (1931 –1954)

أ. هاشم كوثر
جامعة الشهيد حمّة لخضر.الوادي _ الجزائر

د.محمّد السعيد عقيّب
جامعة الشهيد حمّة لخضر.الوادي _ الجزائر

ملخّص :

تتطرّق هذه الدّراسة إلى دور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين، وإسهاماتها في الدّفاع عن مقوّمات الهويّة الوطنيّة الجزائريّة وحمايتها من مختلف محاولات التّزييف والطّمس التي سعت إليها الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة قصد القضاء على كلّ ماهو جزائريّ من خلال جيدتي الشّهاب والبصائر في الفترة مابين 1931–1954 .

الكلمات المفتاحية: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الهوية الوطنية، جريدة الشهاب، جريدة البصائر.

Abstract

This study deals with the role of the Association of Algerian Muslim National Scientists and its contribution to the defense of the elements of the Algerian national identity and its protection from the various attempts at falsification and obliteration sought by the French colonial administration to eliminate all Algerian through Al-Shehab and Al-Basayr newspapers (1931-1954).

Keywords : Association of Algerian Muslim National Scientists, National identity, through Al-Shehab and Al-Basayr newspapers

مقدّمة

مثّلت فترة بدايات القرن العشرين مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر في نضالها ضدّ المستعمر الفرنسيّ، حيث شهدت نموّ الوعي وتبلور العديد من الاتجاهات والتيّارات الوطنيّة التي اختلفت فيما بينها من حيث المنطلقات والبرامج، غير أنّها اشتركت في العديد من الغايات والوسائل خاصّة توظيف الصّحافة العربيّة منها والفرنسيّة، التي لعبت دورا كبيرا في النّهضة الفكريّة الجزائريّة وفي الحفاظ على الشّخصيّة الوطنيّة وفي باقي المجالات الأخرى ومن ذلك عملت الحركة الإصلاحيّة الجزائريّة على تسخيرها خدمة لمطالبها وأهدافها، وكان أبرزها "**الشّهاب والبصائر**" لسانا حال جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين اللتين وظفتهما لخدمة الوطن وللذّود عن مقوّمات المجتمع الجزائري ومجابهة السّياسات الاستعماريّة التي رمت إلى إعدام كلّ ما هو جزائري وعربي وإسلامي.

وتهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على مدى مساهمة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في كشف حقيقة الاستعمار الفرنسي الذي لطالما كان يتبجّح بنشره للحضارة والمدنيّة في الجزائر، وأنّ ما يقوم به إنّما هو الاستبداد والتسلّط ذاته، ودورها في معالجة أمراض المجتمع وإنقاذه من سطوة الجهل والتخلّف والمحافظة على مميّزاته وخصائصه وتاريخه وانتمائه للعروبة والإسلام.

وقصد التعرّف على مساهمة الجمعيّة في المحافظة على المرجعيّة الدّينية للمجتمع الجزائري من خلال صحيفتي الشّهاب والبصائر قسمنا دراستنا إلى لدور الجمعيّة في الحفاظ على مواجهة السياسات الفرنسيّة التّغريبيّة، أمّا العنصر الثّاني فتمثّل في التطرّق لجهود الجمعيّة في تنشيط التّعليم العربي وإحياء اللغة العربيّة والتّاريخ الوطني والإسلامي،في حين ارتأينا أن يكون العنصر الأخير عن محاربتها للبدع والضلالة، وقد اعتمدنا في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

1/- جمعيّة العلماء في مواجهة السّياسات الفرنسيّة التّغريبيّة:

إنّ الانتماء إلى الجزائر لا يكون إلّا بالانتماء للعناصر المكوّنة للشّخصيّة الوطنيّة، وتحريرها من أشكال الجهل وتثقيف النّاس وتعليمهم اللغة العربيّة وتاريخهم الوطني وأمور دينهم، وحتّى يحسّ الفرد الجزائري أنّه ينتمي لهذا المجتمع عليه أن يعيش واقع

مجتمعه ويتفاعل مع قيمه العربيّة الإسلاميّة التي عبّرت عنها جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في شعارها الخالد المقدّس " الإسلام ديننا، العربيّة لغتنا، الجزائر وطننا"، وقد اختصرت الشّهاب والبصائر حقيقة الحياة في الجزائر فوصفتها بأنّها كانت بتراء ناقصة مشوّهة لا تبعث في النّفوس إلّا حسرات وآلام، ولم تعد لا شرقيّة ولا غربيّة وأنّ الشبّان والكهول والشّيوخ هم الأمّة في كلّ زمان ومكان ولكنّهم في أمّة الجزائر لا تجد فئاتهم الثّلاث معاني الأمّة الحقيقيّة من الارتباط الحسّي والمعنوي الذي يمكن أن تلمحه في كلّ أمّة وأرجعت السّبب في ذلك إلى جهل الإسلام[1] واللّغة الذي خيّم على عقول الجزائريّين إلّا قليلا منهم.

لقد جاء الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت والاستعمار سُلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصّحيح، وهو في الجزائر قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرّذائل، والتّعليم بإفشاء الأمّية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير[2]، لذلك ركّزت الجمعية ومصلحوها في جهودهم على محاربة السياسات الفرنسيّة الإدماجية والتّغريبيّة وترسيخ مقوّمات الذّاتيّة الجزائريّة التي بها اهتدت وبها صالت وجالت في مجال الحضارة والعمران وبها تنهض وتردّ العدوان .

منذ بداية احتلاله للجزائر وجّه المستعمر الفرنسي سهامه على الإسلام والعربيّة والوطن الجزائري وكشف عن غايته الحقيقية في نزع الطابع الإسلامي عنها وإضفاء الطابع المسيحي بدله وما يدلّ على ذلك تحويل مسجد كتشاوة أجمل مسجد في الجزائر إلى كاتدرائيّة بعد أن هجموا عليه وهو يغصّ بالمصلّين الذين استشهد منهم 4000 مسلم جزائري، وتحويل مسجد صالح باي بقسنطينة إلى كنيسة وعلى درجات منبره خطب سكريتير الحاكم العام بيجو فيه يتبجّح قائلا : " إنّ أيّام الإسلام الأخيرة قد حلّت ولن تمضي مدّة 20 سنة حتّى لا يبقى للجزائر من إله سوى المسيح .....إنّ الرّجوع الشامل إلى الله سيكون العلامة التي أتيقّن بأنّ فرنسا ستحتفظ بالجزائر، وأنّ العرب لن يصبحوا رعايا لفرنسا إلّا عندما يصيرون نصارى"[3].

وعشية الاحتلال كان في قسنطينة 86 مدرسة، وفي العاصمة 80، وفي تلمسان 50، أمّا عدد المساجد في العاصمة فكان 112 مسجدا، فصاروا بعد مدّة قصيرة جدّا 04 مساجد، وفي سنة 1862م بدأ عدد المساجد والمدارس والكتاتيب والزّوايا والجوامع تتضاءل

بأضعاف مضاعفة، وهنا يصرّح (دي توكفيل): "لقد وضعنا أيدينا في كلّ مكان على هذه الأملاك (الأوقاف)، ثمّ وجّهناها غير الوجهة التي كانت تستعمل فيها في الماضي، لقد عطّلنا المؤسّسات الخيرية، وهكذا تركنا المدارس تموت، والنّدوات العلمية تندثر[4] .

ولم تتوقّف فرنسا عن تبجّحها، وإعلان سبب احتلال الجزائر في تصريحات رجالها الخطابية أو التّقارير الإدارية أمام العام والخاص، ظانّين بعد هذه العقود من الزّمن التي مرّت على الشّعب الجزائري أنّ أمره قد انتهى، وجنح إلى الاستسلام ففي سنة 1930م قامت الإدارة الفرنسية بالاحتفال العظيم بالذّكرى المئوية للاحتلال حيث أقاموا حفلا ضخما دام شهرا أحيوا خلاله ذكرى انتصاراتهم على المقاومة المسلّحة للأمير عبد القادر وثورات 1871 وما عقبها من انتفاضات شعبيّة ،استخدمت فيها إدارة وجيش الغزاة كلّ أساليب قهر الأهالي ، وهدفت من خلاله إهانة الجزائريين وإذلالهم لأنّ الحكم الفرنسي للبلاد أصبح أمرا واقعا بمنظورهم وأنّ المسألة الأهليّة أصبحت من بين الموضوعات المعقّدة والحسّاسة وأنّه ليس هناك ما يمكن عمله بالنسبة للشّعب العربي الجزائري والذي يجب أن ينقرض بحكم الأشياء كما انقرضت بعض القبائل البدائيّة في أمريكا الجنوبيّة أمام تقدّم الحضارة[5] متبجّحين بأنّهم قد بسطوا سلطانهم على الجزائر بقوّة الحديد والنّار، وأنّهم افتكّوها من الحضارة الإسلامية، وأرجعوها إلى الحضارة الرّومانية التي ينتمون إليها في وقت عظم فيه الضّغط على الشّخصية الجزائرية حتّى غدت مهدّدة بالتّلاشي.

عمل الاستعمار الفرنسي كلّ ما في وسعه لتحويل الشّعب الجزائري عن هويّته الأصليّة معتمدا على الجندي والطبيب والمعلّم والراهب ،يقول الشيخ الإبراهيمي في ردّه على مزاعم الوالي الفرنسي نيجلان الذي كان قد منّ على الجزائر أنّ فرنسا قد أمدّتها بعناصر التمدّن الأربعة : " جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب الاستعماري لتفسد به على المسلمين دينهم وتفتنهم به عن عقائدهم وتشككهم بتثليثه في توحيدهم ...وجاءت بالمعلم الاستعماري ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم ويلقي الاضطراب في أفكارهم ويستنزلهم عن لغتهم وآدابهم ويشوّه لهم تاريخهم ويقلّل سلفهم في أعينهم ويزهدهم في دينهم ونبيّهم ويعلّمهم بعد ذلك تعليما ناقصا هو شرّ من الجهل...وجاءت بالطبيب الاستعماري ليحافظ على صحّة أبنائها قبل كلّ شيء بآية أنّه لا يكون إلّا حيث يكون الأوربيّون لا في المداشر التي يسكنها الألوف من المسلمين وحدهم ولا في القبائل المتجاورة ....هذا الطبيب الاستعماري بالنسبة على المسلمين فكأنّما جاء ليداوي علّة بعلل ،ويقتل جرثومة بخلق جراثيم ويجرّب معلوماته

فيهم كما يجرّبها في الأرانب ثمّ يعيش على أمراضهم التي مكّن لها الاستعمار بالفقر والجهل "[6]، وتفنّن في إصدار القوانين التي تسهّل له القضاء على المقوّمات الجزائريّة فحارب التّعليم واللغة العربيّة واعتبرها لغة أجنبيّة وضيّق على نشاط العلماء والجمعيّة ، وفتحت باب التجنيس أمام الجزائريين شريطة أن يتخلّوا عن أحوالهم الشّخصيّة حسب قانون 1865 والقانون المعدّل له لسنة 1919 ، حتّى خلق من بين الجزائريين دعاة الإدماج وعلى رأسهم فرحات عباس الذي كتب مقالا بعنوان " فرنسا هي أنا" وأنكر وجود الجزائر وتاريخها وهويتها وبحسبه أنّ الهويّة الفرنسيّة هي الهويّة الوحيدة التي لها أهميّتها في الجزائر وتعلّل بأنّه سرعان ما يصبح الجزائريون فرنسيون سرعان ما يتبوؤون مقاعدهم ضمن الشّعوب المتحضّرة في العالم[7]، متأثّرين بذلك بأفكار علماء فرنسيين كانوا قد استعاروا نفي وجود الهوية الجزائرية من كتابات "أتش دو قرامونت " منتصف القرن 19م والتي تكرّرت في الاحتفالات المئويّة من قبل "قوتييه" و"إي بيرنارد" الذين زعما أنّ فرنسا جاءت إلى الجزائر لتحرير شعبها من استبداد الأتراك ،وليتقاسموا فضائل الحضارة معهم والمفرنسون الذين قلّت معرفتهم بتاريخهم الإسلامي الماضي كانوا أميل إلى تبنّي الآراء الفرنسيّة ولم يستطيعوا استيعاب إصرار كثير من الجزائريين على المحافظة على تراثهم وهويّتهم [8]ثمّ جاء من بعد ذلك مشروع بلوم فيوليت 1936 كمحاولة لتشجيع الجزائريين على التخلّي عن المقوّمات الذاتيّة الجزائريّة من أجل تحقيق حقوق سياسيّة معيّنة على أساس إدماج الشعب الجزائري في المجتمع الفرنسي وحضارته وتاريخه [9] ، وما كانت مشاركة الجمعيّة في المؤتمر الإسلامي جوان 1936 إلّا استراتيجية للدفاع عن الهويّة الإسلاميّة للمجتمع الجزائري .

لقد كانت غاية الجمعيّة الأسمى هي الحفاظ عن الهويّة الوطنيّة وأسسها الدينيّة وحمايتها من هجمات التفرنس والتّغريب والتّنصير ووظّفت لذلك كلّ وسائلها ورجالها من صحافة وتجمّعات ومحاضرات وزيارات ميدانيّة لمختلف مناطق الوطن فاهتمّت بالتّعليم وإصلاحه ، يقول الشيخ ابن باديس في خطاب ألقاه بمناسبة شراء دار لتضمّ إلى مدرسة الفلاح بمدينة وهران في 17 فيفري 1938 :"إنّ الحياة تنبعث من الدارس ،فيجب أن تكون المدارس أوّل ما نهتم به، ونسعى لتحقيقه ، وكلّ من يعارض في تأسيسها فقد عارض في حياة الأمّة ونهضتها " ومضى يؤكّد في كلّ مناسبة على أنّ المدرسة إنّما هي قلعة من قلاع الأحرار والبطولة والرجولة والجهاد فيقول " إنّ لنا جندا عظيما نستطيع أن ندفع به –بإذن

الله– كلّ خطر ونقي به أنفسنا من كلّ ضرر ، وهذا الجند يتألّف من ثمانية وعشرين كورديارمي[10] ((corps d'armée فحرف ألف كوردارمي وباء كوردارمي وهكذا إلى الياء"[11]

عملت جمعية العلماء المسلمين على مواجهة المشروع التهديمي للمقوّمات الوطنيّة وعملت على إحياء الهوية الإسلامية العربية للمواطن الجزائري في وجه الانسلاخ والتغريب ففتحت الجمعية مدارسا لتعليم الصغار والكبار الرجال والنساء ، كما هاجم ابن باديس الفرنسيين وظلمهم وشنَّ حملة شعواء على عملية التجنُّس بالفرنسية وعدّها ذوباناً للشخصية الجزائرية المسلمة، وطالب بتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي وسعى علماء الجمعيّة إلى التّأصيل والعودة إلى مصادر الإسلام من قرآن وسنّة [12] وهدي السّلف الصّالح لأنّها الطريقة الوحيدة التي تمكّن الجزائريين من النهوض والارتقاء إيمانا بقوله صلى الله عليه وسلّم: "تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما كتاب الله وسنّة نبيّه"[13] وفي ذلك يقول الشيخ ابن باديس " إن الدين قوة عظيمة، لا يستهان بها، وإن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته، وتجلب عليه وعليها الأضرار[14] .

قامت الجمعيّة بتقديم الإسلام الصّحيح للشّعب الجزائري الذي أعيته بعض فِرق الضّلال بالأباطيل والشّعوذة، والقضاء على البدع والخرافات بالدّليل والبرهان، وكذلك قام الإمام عبد الحميد بن باديس بتفسير القرآن الكريم في مدّة 25 عاما ، كما واجه محاولات الاستعمار الفرنسي في غرس الفرقة والعنصريّة بين أبناء الوطن الواحد فسعى الاصطلاحيون إلى التنديد بسياسة فرّق تسد الفرنسيّة وتفعيل وحدة المعتقد الجزائري والمصالحة بين السنّة والإباضيّة في الجزائر وضرب المشروع الفرنسي في منطقة القبائل التي هدفت إلى خلق مجتمع أمازيغيّ منفصل[15]، وعن ذلك كتب الشيخ ابن باديس خطابا نقلته مجلة الشهاب وجريدة البصائر بعنوان " ماجمعته يد الله لا تفرّقه يد الشيطان " جاء فيه : " إنّ أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا ، ثمّ دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدّة والرّخاء وتؤلّف بينهم في العسر واليسر وتوحّدهم في السرّاء والضرّاء حتّى كوّنت منهم منذ أحقاب عديدة عنصرا مسلما جزائريّا أمّه الجزائر وأبوه الإسلام وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتّحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشّرف لإعلاء كلمة الله ،وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم فأيّ قوّة بعد هذا تستطيع أن تفرّقهم لولا الظّنون الكواذب والأماني الخوادع"[16].

كانت جمعية العلماء إطارا عاما التقى فيه الجزائريون الذين بغيتهم الإصلاح وهدفهم خدمة الجزائر ومحاربة الاستعمار، ولذلك نجد الجمعية قد ضمت إلى صفوفها كل من يؤمن بالرسالة الإصلاحيّة استطاع والعلامة ابن باديس جمع المسلمين الجزائريين بعيدا عن الطائفية ، واحتوى رجال الصوفية وعلماء المذهب الإباضي بروح الأخوية، فكان –الرئيس: عبد الحميد بن باديس، و–نائب الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي، –الكاتب العام: محمد الأمين العمودي، و–نائب الكاتب العام: الطيب العقبي، و–أمين المال: مبارك الميلي، – نائب أمين المال : إبراهيم بيوض، وهو إباضي[17] ;لم ينظر فيها إلى مذهب دون آخر ولا إلى طريقة دون غيرها، ولا غاية للمصلحين ولا أمل لهم غير الاتّفاق والاتّحاد، نظرا لأنّ الجمعيّة جمعية علماء، وهم أقرب النّاس إلى الحقّ وأعرف النّاس بطرق التّفاهم

وإذا كانت الجمعيّة قد بلغت إلى شيء من غايتها فذلك لأنّها أتت هداية الأمّة من بابها ،فخاطبتها بلسانها وقادتها بدينها الذي هو زمام روحها ، والجزء الأعظم الذي تتكوّن منه، وتحيى به شخصيّتها ، فعالجتها بالكتاب والسنّة وهدي صالح سلف الأمّة، حيث يتوجّه كلّ مسلم منشرح الصّدر مطمئنّ النفس، وحيث تنضوي كلّ المذاهب والفرق، فيقلّ الخلاف أو ينعدم ، فلو كان في الجزائر جميع مذاهب الإسلام لوسعتهم هذه الجمعيّة بعلاجها النّاجع النّافع للجميع[18].

أخفقت فرنسا رغم كلّ محاولاتها في القضاء على الوطن الجزائري وهويّته بفضل الجمعيّة التي أيقظت الجزائريين من سباتهم الذي شبّهه أحد الشّعراء العرب بغرفة انتظار الموت ، وبفضل علمائها الذين أحيوا مقوّماته حتّى اعتبرها المؤرّخ الفرنسي شارل روبير أجيرون ميلادا للوطنيّة الجزائريّة فقال " وعندئذ ظهرت في لغة الجزائر العربيّة كلمات ذات معنى جديد مثل : وطن، الأمّة الجزائريّة، الشعب ..."[19]

وأصبح الفرنسيّون ذاتهم يتوجّسون خيفة من علماء الإصلاح كما جاء في أحد التّقارير السريّة التي كتبها المسؤولون الفرنسيّون في أوائل الخمسينات " أنّ العلماء كانوا يمثّلون أكبر الخطر على الفكرة الفرنسيّة في الجزائر ، فشعب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية ، والإسلام الذي يمارسونه مدرسة حقيقيّة للوطنيّة "[20]، ولعلّ أبرز دليل على انتصار الجمعيّة وتشبّث الجزائريين بهويّتهم ومقوّماتهم تلك الحادثة سنة 1958 التي أوردها الأستاذ عبد الله ناصح علوان في كتابه تربية الأولاد في الإسلام يقول : " من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر قامت فرنسا بتجربة عمليّة ، قامت بانتقاء عشر فتيات

مسلمات جزائريّات أدخلتهنّ الحكومة الفرنسيّة في المدارس الفرنسيّة وألبستهنّ الثّياب الفرنسيّة فأصبحن كالفرنسيّات تماما، وبعد 11 عاما من الجهود هيّأت لهنّ حفلة تخريج رائعة دعي إليها الوزراء والمفكّرون والصّحفيّون ، ولمّا ابتدأت الحفلة فوجيء الجميع بالفتيات الجزائريّات يدخلن بلباسهنّ الإسلامي الجزائريّ ، فثارت الصّحف الفرنسيّة وتساءلت ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور 128 سنة ؟! ،فأجاب روبير لاكوست– الوزير الفرنسي المكلّف بإدارة الجزائر – : " وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا"[21] ، وشهد شاهد من أهلها ، فحقّا كان القرآن أقوى من فرنسا والجمعيّة التي جعلت القرآن منهجها للتّنوير والتّجديد والتّحرير أقوى من فرنسا، والجزائريّون الذين تمسّكوا بأصالتهم وانتمائهم لوطنهم ولدينهم وللغتهم أقوى منها أيضا رغم ضعفهم .

2/– جهود الجمعيّة في إحياء وتنشيط التّعليم العربي :

وجّه الاستعمار الفرنسي هجمة عنيفة ضدّ الشّخصيّة الجزائريّة، وحاول طمس معالمها ومقوّماتها الحضاريّة من لغة ودين وتاريخ وثقافة ، وأدخلها في ركود ثقافيّ وانتهج لذلك سياسة الفرنسة والتّجهيل المتعمّد فاستهدف بالدّرجة الأولى التّعليم الجزائري ولغته العربيّة.

فبعدما كانت الجزائر في بداية الاحتلال تتجاوز نسبة المتعلّمين فيها 40% من سكّانها وصلت الأميّة إلى نسبة 90 % بعد مرور قرن على استيطانه فيها ، حيث عطّلت الزّوايا عن أداء دورها التّعليمي والخيري، وأغلقت الكتاتيب القرآنيّة، والمدارس ولم تدّخر في ذلك وسيلة ولا قانونا[22]، فانخفض مستوى التّعلّم في المعاهد الدّينية المرتبطة بالزّوايا، وهو تعليم كان في أساسه ضعيفا مغلقا، فأصبحت الثّقافة التي توفّرها لطلابها اجترارا لمتون الفقه وشروحه وتحفيظا للقرآن من غير فهم، وترديدا لقواعد النّحو والصّرف[23].

واستمرّ الاحتلال على نفس الوتيرة في شلّ الحياة الفكريّة ونشر الأميّة في أوساط الجزائريين حتّى أفقد الجزائر ما يلزمها من القوّة العلميّة والاجتماعية والسّياسيّة، في الوقت الذي استيقظت فيه الأمم الأخرى، وسلكت طريق الثّقافة والعلم والتقدّم[24]، ولمّا كانت اللّغة العربيّة هي وعاء الثّقافة الجزائريّة، ركّزت السّلطات الإستدماريّة حربها عليها واتّخذت موقفا عدائيّا منها وكان منهجها التخلّي وإبعاد مؤسّسات التّعليم ومعاهده في جميع مراحله[25] لأنّه

متى تمّ القضاء عليها يمكن القضاء على الشّخصيّة الوطنيّة بكلّ يسر، وتمشّيا مع هذه السّياسة قامت بملاحقة العربيّة في كلّ مجالات الحياة في الجزائر[26]، فمنع التّعليم الدّيني في المساجد وأبطلت الجمعيّات ذات الطّابع الدّيني[27] وأغلقت الكتاتيب والمدارس الابتدائية والثّانويّة والمعاهد العليا التي كانت منتشرة انتشارا كبيرا في عدّة مدن جزائريّة ،.حيث كانت تدرّس فيها العلوم الدّينيّة واللّغويّة والأدبيّة، وهو ما شهد به الرحّالة الألماني فيلهلم شيمبر Filhelm Shmber الذي كان قد زار الجزائر بعد الغزو والاحتلال بحوالي 10 أشهر وأكّد أنّ نسبة المتعلّمين في الجزائر تزيد عن المتعلّمين في جنوب أوربا، وأنّ الفرنسيّين قد حوّلوا الكثير من تلك المدارس إلى حظائر وملاه ومتاحف من أجل الحدّ من انتشار المعرفة بين الجزائريين[28]، بل فرضوا اللغة الفرنسيّة في التّعليم وعمد الفرنسيّون زيادة عن ذلك إلى محاولة فرنسة المحيط الخارجي كذلك للقضاء على التّراث الوطني العربي الإسلامي حيث مسّ التّغيير حتّى مظاهر الحياة العامّة في الجزائر ومدنها وساحاتها وشوارعها ومؤسّساتها فأصبحت تحمل أسماء حكماء وجنرالات فرنسيّين مثل : باسكال ، فولتير ، فيكتور هيجو سانتارنو، روفيقو، ميشيل ... الخ[29]، ونتيجة لذلك تاه المجتمع الجزائري في بيداء الجهل والخمول، وأصبح محروما من كلّ العلوم والمعارف التي اكتسبتها المجتمعات الأخرى الرّاقية[30].

وقد ارتكزت سياسة التّجهيل في الجزائر على القضاء على مصادر تموين التّعليم العربي فاستولت على أملاك الأوقاف الإسلاميّة التي كانت تنفق على مراكز التعليم والثّقافة فقد كانت خمسة أعشار الأراضي الزّراعيّة الجزائريّة أوقافا ولمّا وضعت فرنسا يدها عليها بسطتها تباعا على الدّين الإسلامي والتّعليم وجعلت الآلاف من الأهالي الذين كانوا يعيشون في تلك الأراضي جماعات تتجوّل لطلب رغيف العيش حتّى أصبحت تسمّى " فيالق الفقراء "[31]وبذلك ماتت معاهد العلم التي سلمت من الدّمار الاستعماري وتفرّق الطّلبة والأساتذة ونهبت حتّى المكتبات[32] لكي لا يبقى للجزائريّين سبيل واحد لأخذ العلم وتعلّم العربيّة .

ركّز رجال الإصلاح على التّعليم العربي الحرّ، والذي بدأ نشاطه قبيل الحرب العالميّة الأولى كردّ فعل على محاربة المحتل لمقوّمات الشّخصيّة الوطنيّة، وقد نشط أكثر بعد تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين 1931 [33]، حيث كانت الشّهاب لسان حالها تدعوا في كلّ مرّة إلى ضرورة إحداث التّغيير والنّهوض بالأوضاع الحرجة التي كان يتخبّط

فيها المجتمع الجزائري ،وحمايته من المكائد الخفيّة التي سعت لتغريبه، ورأت أنّ السّبيل لتحقيق ذلك لا يكون إلّا بالعلم الذي به يرفع شأن الأمم ويقوى سلطانها ومن ثمّ نادت بتنشيط حركة التّعليم و إكثار المدارس وتعليم الصّغير والكبير [34]، كنوع من الدّفاع عن هويّة وثقافة الجزائر وتبنّت في كلّ مرّة شعار الجمعيّة " الإسلام ديننا ، العربيّة لغتنا والجزائر وطننا "[35].

وتجسيدا لهذه الدّعوة فتحت الحركة الإصلاحيّة الكثير من المدارس وأسّست النّوادي وسخّرت المساجد والجوامع وتكوّنت الجمعيّات الخاصّة لرعاية تلك المؤسّسات حتّى أصبحت معاهد التّعليم العربي الحرّ " التّعليم القومي " تعدّ بالمئات وتشمل المدن والقرى والأرياف[36].

كما ندّدت الشّهاب والبصائر دائما بالحالة التي أصبح عليها التّعليم وشخّصت معيقاته التي لم تقتصر حسبهما على سياسة الإدارة الاستعماريّة فحسب، بل إنّ سوء تقصير أصحاب المال في الإنفاق على هذا الجانب زاد الأمر سوء وتعقيدا،إذ كانوا لا ينفقون على التّعليم نصف ما ينفقون على التّدخين[37]، وفي الوقت ذاته دعتا إلى ضرورة تطوير طرق التّعليم التي كانت تقتصر على الحفظ والاستظهار لمتون اللّغة أو الدّين دون التفقّه فيها وصقلها بالآداب فأصبحت قواعد اللغة أداة صمّاء لفهم مسائل دينيّة فهما سطحيّا، في حين أنّ إدراك المسائل الدّينيّة خاصّة إدراكا صحيحا يتوقّف على " حذق اللغة وأساليبها الدّقيقة، بل وعلى حذق العلوم الإجتماعيّة "[38]، والعمل على مقاومة السّياسة الفرنسيّة.

وعندما تكاثر عدد هذه المراكز واشتدّ إقبال الجزائريّين عليها رأى الاحتلال فيها بوادر انهيار لسيطرته على الجزائر ودلائل فشل لسياسته في محاولة محو الشّخصيّة الوطنيّة للجزائريين، لذلك شنّ عليها حربا ضاربة كانت تشتدّ أحيانا وتهدأ أحيانا أخرى[39]،وهو ما شكّل عائقا كبيرا أمام الدّور الذي تلعبه حركة التّعليم العربي الحر، غير أنّ الصّحف الإصلاحيّة كانت تندّد في كلّ مرّة بما تقوم به الإدارة الاستعمارية، من ذلك ما نشرته البصائر سنة 1937 بعنوان " محاربة التّعليم العربي في الوطن الجزائري " شبّهت فيه اهتمام فرنسا بحركة التّعليم القومي الجزائري البسيط باهتمام انجلترا باستحكامات إيطاليا وتحصيناتها الحربيّة[40].

3/- محاربة جمعية العلماء للبدع والضلالة:

لا يخلو أيّ مجتمع من المجتمعات من الأخلاقيّات السيّئة والرّذائل التي تتطوّر حتّى تصبح علّة ومرضا يسري في جسده فينخر تماسكه ووحدته، والمجتمع الجزائري كغيره من الأمم الأخرى عانى من الآفات الاجتماعية والخرافات، التي تفشّت وسرى مفعولها حتّى أصبحت تشكّل خطرا كبيرا على واقع ومستقبل البلاد والعباد، لذلك سعى المثقّفون الجزائريّون وعلى رأسهم المصلحون إلى محاربة مثل هذه الآفات والردّ على كلّ من سوّلت له نفسه ترويجها والمساس بكل ما هو جزائريّ خاصّة بعد تأسيس الجمعيّة التي حملت على عاتقها تطهير المجتمع والدّين ممّا شابه من الأباطيل والمنكرات والانحرافات.

وقد انتشرت البدع والأباطيل التي كانت لا تعدّ ولا تحصى في أوساط المجتمع الجزائري الذي أصبح يشار إليه بالأنامل وباتت الجزائر بلاد العجائب والغرائب[41]، غير أنّ ذلك الواقع ليس بالأمر الغريب إذا ما نظرنا إلى الأسباب التي أدّت إلى ذلك، ولعلّنا نستطيع إرجاعها إلى :

_السّياسة الإستدماريّة الفرنسيّة التي كانت تغذّي كلّ ما يمكن أن يفسد المجتمع الجزائري.

_قلّة الوعي لدى غالبيّة الجزائريّين الذين خيّم عليهم الجهل والأميّة، وسيطر عليهم الفقر الذي هدم كلّ ما ينجم عن العلم من فضيلة وثقافة صحيحة، وكان له دور في سحق بعض أصول الدّين بسبب ما يشوّهها من الخزعبلات في جوانب عدّة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية[42].

_ والسّبب الأخطر هو دور الطرقيّة المبتدعة في بثّ الأباطيل والضّلالات في عقول الجزائريين، إذ كان كلّ يوم يمرّ زادت فيه البدع في التّفاقم والجراثيم والأمراض الاجتماعية في التّعاظم والسّريان حتّى شبّه الكاتب مصطفى بن شعبان أحد الأقلام الشّهابيّة ذلك بسريان الكهرباء[43]، فضلا عن الدّجاجلة الذين كانوا يستغلّون النّاس، ويأكلون أموالهم وينتهكون أعراضهم بما كانوا يضحكون به على عقولهم[44].

لقد استغلّ المحتلّ الفرنسي بعض الزّوايا المنحرفة بما يخدم أغراضه، إذ لم تلبث أن أصبحت وكرا للتّدجيل والشّعوذة وبؤرة لصناعة البدع والضلالات بما تذيعه في أوساط الأمّة من فساد وانحلال وانحرافات، وما تنشره في صفوفها من أوهام تحمل النّاس على الزّهد في طلب الدّنيا وتوهمهم بقرب زوالها، وتؤكّد لهم عجزهم عن مجاراة الأمم المتقدّمة[45]، وقد بلغ ضعف العقيدة الدّينيّة في نفوس بعض القائمين على أمر هذه الطّرق إلى درجة الاعتقاد في شيخ الطّريقة والتوسّل به وإيثار قراءة الأوراد والأذكار على تلاوة القرآن الكريم، حتّى وصفها الشّيخ البشير الإبراهيمي بأنّها هي " علّة العلل في الإفساد ومنبع الشّرور، وأن كلّ ماهو متفشّ في الأمّة من ابتداع في الدّين وضلال في العقيدة وجهل بكلّ شيء وغفلة عن الحياة والإلحاد في النّاشئة فمنشؤه من الطّرق"[46].

ووصف الشيخ ابن باديس كذلك استغلال الطرقيّة للعامّة من النّاس والفقراء فيقول : " أنّ بعض المأمورين من بعض شيوخ الطّوائف يأتون بثلّة من أتباعهم فينزلون على المنتمين إليهم من ضعاف النّاس فيذبح لهم العناق إن كانت ويستدين لشرائها إن لم تكن موجودة ،ويفرغ المزاود ويكنس لهم مافي البيت ويصبح معدما فقيرا مدينا ...وشرّ مافي هذا الشرّ أنّه يرتكب هذا باسم الدّين ويحسبه الجهّال قرب لرب العالمين"[47].

ومن أكثر الظواهر المبتدعة خطورة والتي نقلتها لنا الشّهاب هي زيارة الأضرحة والقبور[48] لارتباطها أساسا بجانب الدّين والعقيدة ، حيث راجت هذه الممارسات الطّقوسيّة حتّى أصبحت عادة متجذّرة ومتوارثة لدى الكثير من الجزائريّين وفي مختلف جهات الوطن والنّاتج أساسا عن التّقديس المفرط للأولياء والصّالحين من جهة وتشجيع السّلطات الاستعمارية لكتّاب الأحجية والتّمائم، حيث رخّصت لهم بفتح محلّات خاصّة بهم تسهيلا لنشاطهم في الوقت الذي كانت تغلق فيه المدارس العربيّة[49] فقد جعل بعض الطرقيّين زواياهم مقرّات للزوّار الذين يطمعون في البركة لأنّهم عملوا المنكرات، وعندما يزورون شيخ الطّريقة تتحقّق لهم حسب زعمهم مآربهم وأمانيهم وتحلّ مشاكلهم ويتقرّبون بذلك إلى الشّيخ فتغفر ذنوبهم وخطاياهم بحيث يكون واسطة يدعوا لهم نيابة عنهم[50]، وكأنّها صكوك غفرانيّة مستحضرين التخلّف الأوربّي في القرون الوسطى ودور الكنيسة في إعطائها للمذنبين.

وزاد الأمر عن ذلك الحدّ حيث كان النّاس يسجدون على أعتاب الأضرحة يقبّلونها ويخاطبون الموتى في الأولياء وفي ذلك يقول كاتب الشّهاب الملقّب " البغبغان " أنّ كثيرا من النّساء المخرّفات يقصدون مسجد الإمام الشّافعي فتأتي الواحدة منهنّ وفي يدها ورقة مكتوب فيها أنّها تشكو إلى هذا الإمام كذا وكذا من تلك المطالب الغريبة الشّاهدة على أنّ زيارة الأولياء قد صارت مشوبة بالشّرك والكفر بالله[51].

ومن ناحية أخرى أدّى غياب الأخلاق في المجتمع الجزائري إلى اختلاط الحابل بالنّابل ودخلت عليه ظواهر غريبة لم تكن مألوفة من قبل[52]، وقد قدّمت الشّهاب صورا عديدة عن تجذّر الخرافات والبدع في المجتمع من ذلك ما كان يرتكب في الأفراح ممّا ينافي العرف والشّريعة، حيث كانت تجلب الآلات والرّاقصات وما يتبع ذلك من أنواع وانعكاسات المسكرات حيث ذكرت جلب أناس أقاموا زفاف قريب لهم فاستقدموا 30 من الرّاقصات وما يلزمهنّ من آلاف الفرنكات التي تصرف عليهنّ[53]،وهو ماتطرّق له مقال آخر عنونه صاحبه بـ " نظرة في البدع " إذ أوضح أنّ أولئك النّاس هم الأغنياء من أصحاب الطّبقة البرجوازيّة الذين تأثّروا بسلوكات ومعاملات الفرنسيّين، لأنّ عامّة الأهالي من الجزائريّين كانوا لا يقوون على توفير قوت يومهم حتّى يصرفوا ويبذّروا كلّ هاته الأموال في زفاف وعلى المسكرات والمومسات من النّساء.

وفي حديثها عن بعض الظواهر الاجتماعية تكلّمت الشّهاب كذلك عن مهور الزّواج التي كان أمرها خطيرا حتّى أمسى الفقير أو المتوسّط من الأهالي من حيث القدرة الماليّة لا يقدر على إتمام نصف دينه ، فحلّت الفوضى الأخلاقيّة والفجور وتكاثرت الجرائم النّاتجة عن ذلك حتّى أصبح المجلس البلدي غير قادر على تنزيل اللّقطاء وأبناء الشّوارع في السّجلّات الشّرعيّة للمواليد للمحاكم الشّرعيّة الفرنسيّة [54].

أمّا المرأة التي عشّشت في ذهنها الأفكار الخرافيّة التي كان يدسّها الدّجالون فيه ويستغلون غفلتها وسذاجتها فقد كانت تلجأ لهم لحماية زوجها أو أبنائها من السّحر اعتقادا منها أنّهم يملكون القدرة على ذلك ، فيزوّدونها بالوسائل الشّيطانيّة المختلفة كحشو الأعتاب والسّقوف والمأكل والمشرب بما يمدونها به علّها تحقّق ما كانت تصبو إليه[55]، فضلا عمّا كانت تقوم به بعض النّسوة من الطّواف حول القبور والعكوف عند القبب من قبور الأولياء

والشّكوى إليهم والاستغاثة بهم والطّلب منهم حتّى صرن يزرن حتّى الكنائس مثل notre dame d affrique ، وينذرن لها النّذور[56].

وقد اختلفت العادات الضالّة وتنوّعت من منطقة لأخرى، فمثلا منها ما سمّي ب " عادة جمعة الثّلمود " ؛ وهي عبارة عن اجتماع يقع ببلدة سيدي عقبة بالزّاب الغربي في أوّل يوم جمعة من فصل الخريف في كلّ سنة تقع فيه الكثير من الخرافات والخزعبلات، وتتكوّن من جماعة الطّرقيّين (العمّاريّة _ العلويّة _ القادريّة[57] _ الرّحمانيّة) كلّ طائفة تحمل أعلامها، وتصحب معها طبولا ومزاميرا ونساء يرقصون أمام الخاص والعام مختلطين بالرّجال، ومن بينهم المومسات، ثمّ إذا وصلوا إلى الضّريح دخلوا إلى حيث يؤدّي النّاس الصّلاة واجتمعوا للتّطبيل والتّزمير والشّطح ومغازلات الشبّان فيصير الضّريح مرتع الغابرين بعد أن كان مصلّى المصلّين[58].

وهنا يمكننا الإشارة إلى سبب آخر من الأسباب التي أدّت إلى مثل هذه الأفكار والممارسات المنحرفة وهو غياب الوازع الدّيني والموجّه من العلماء والأئمّة الذين كان دورهم المنوط بهم هو تنوير عقول النّاس وتوضيح مباديء الدّين الصّحيحة حتّى كتبت الشّهاب مقالا سنة 1926 تتساءل فيه " أين العلماء" [59] أمام الوضعيّة المتردّية التي أصبح يتخبّط فيها المجتمع الجزائري نتيجة الاعتقاد بالخرافات وطغيان الطّرقيّة والانحراف إلى الجاهليّة[60]، غير أنّ الأمر لم يستمر بعد أن تبنّى المصلحون والعلماء الذين عادوا إلى الجزائر وعلى رأسهم الشّيخان ابن باديس والإبراهيمي فكرة الإصلاح الشّامل خاصّة ما تعلّق بالعقيدة والمجتمع وسخّروا كلّ طاقاتهم لمحاربة البدع العامّة والشّعائر المستحدثة أهمّها بدع الجنائز والمقابر والحجّ والاستسقاء والنّذور، ووقفت في وجه بدع الطّرق وضلالاتها التي استحكمت في المجتمع وأصبحت دينا مستقرّا[61].

إنّ الفكرة التي عملت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين بكلّ قوّة وفعالية لتحقيقها هي محاربة البدع والشّعوذة اللّتين لصقتا بالإسلام في عصور الجهل والتأخّر والانحطاط ، فالإسلام كما كتب العلّامة ابن باديس " هو دين الله الذي أرسل به جميع أنبيائه كمل هدايته وعمّم الإصلاح البشري به على لسان خاتم رسله، هو دين جامع لكلّ ما يحتاج إليه البشر أفرادا وجماعات لصلاح حالهم ومآلهم، فهو دين لتنوير العقول وتزكية النّفوس وتصحيح

العقائد وتقويم الأعمال فيكمّل الإنسانيّة وينظّم الإجماع، ويشيد العمران ويقيم ميزان العدل وينشر الإحسان"[62] ، غير أنّ هذا الإسلام الطّاهر الذي يدعو إلى العمل والتقدّم والتطوّر قد صار بفعل الخرافات والبدع والمنكرات إسلاما يدعو إلى التّواكل والتّكاسل وعدم مجاراة الأمم المتطوّرة[63]، ويقول الشّيخ البشير الإبراهيمي " الأمّة كالفرد تصاب بالأمراض كما يصاب وتعالج كما يعالج، كما أنّ الفرد إذا مرض يجب أن يختار له طبيب حسن ماهر ليكون لنصحه أثر في نفس المريض ولعلاجه فعلا في دائه، فكذلك الأمّة إذا مرضت فالواجب أن ينتدب لها أمهر الأطبّاء وأحسنهم لعلاجها "[64]

هكذا كانت قناعة رجال الإصلاح في الجزائر، قناعة مبنيّة على ضرورة النّهوض بالوطن وتخليصه ممّا أصبح يعانيه في شتّى مجالات الحياة، لذلك استهدفت الحركة الإصلاحيّة خاصّة بعد تأسيس الجمعيّة نشر دعوتها في كلّ نواحي القطر الجزائري للنّهوض بالمجتمع عقائديّا وثقافيّا وسياسيّا لمّا شعرت بأنّ الشّعب الجزائري مهدّد بفقدان مقوّماته الأساسيّة المتمثّلة في الدّين واللّغة كما أنذرت من ظاهرة التّفرنس التي تهدّد المجتمع العربي المسلم ومن الآفات الاجتماعية المتفشّية فيه كالجهل والبطالة والأميّة[65]. وعلى صعيد آخر قام علماء الإصلاح بدور هامّ ومؤثّر في إنقاذ المجتمع الجّزائري من سطوة الطّرقيّة المنحرفة واستنهاضه من كبوته وتجديد عقيدته وإحياء مقوّماته وتحرير العقول وتوحيد الصّفوف ومواجهة المؤامرات وربطوه بكيانه الحضاري العربي والإسلامي وردّوا شبهات المبتدعين[66]، وشنّوا عليهم حربا ضروسا وتتالت دعوات الشّهابيّين لمحارة أفكارهم وممارساتهم الضالّة والإحجاب عن المنكرات من الزّيارات والطّواف حول القبور والتوسّل إليها وتقبيلها والشّكوى إليهم والاستغاثة بهم[67] لأنّ ذلك يدخل في باب الشّرك بالله وقد كان تأسيس جمعيّة العلماء المسلمين إيذانا ببداية الصّراع بين الطّرفين وهو ما أكّده رئيسها في اجتماع تأسيسها حيث قال " أمّا غاية الجمعيّة فهي إصلاح الفاسد وتقويم المعوجّ وإرشاد الضّال بالهداية والحكمة في دائرة المحبّة والوئام، وإصلاح شؤون أهل العلم ولمّ شعثهم وتنظيم هدايتهم "[68]. اعتبر المصلحون أنّ الطّرق الصّوفيّة بدعة لم يعرفها السّلف ومبناها كلّها على الغلوّ في الشّيخ والتحيّز لأتباع الشّيخ وخدمة دار الشّيخ وأولاد الشّيخ إلى ماهنالك من استغلال ومن تجميد للعقول وإماهة للهمم وقتل للشّعور[69] فانتقدوها من حيث ممارساتهم التعبّديّة والتي انجرّ عنها آفات كثيرة تعدّت آثارها الحياة الاجتماعية لذلك حاربوها وانتهجوا في ذلك أسلوبا خاصّا لا

يتّسم بالعنف لأنّهم كانوا حريصين على وحدة الأمّة رغم الاختلاف بقدر طاقاتهم وعلى تحويل هذه الأخيرة للعمل والجهاد ضدّ المحتل الفرنسي من جهة ومن ناحية أخرى مواجهة الطّرقيّين وأتباعهم عن طريق الوعظ والإرشاد بالهداية القرآنيّة فهي أنجح دواء فكانت الدّروس التي يلقيها دعاة الإصلاح تحقيقا للسّلوك القرآني تؤتي أكلها من ناحية ، وتصلح ما أفسده الطّرقيّين في النّفوس العامّة من ناحية أخرى[70].

لقد أدرك رجال الجمعيّة ومصلحوها في وقت مبكّر ما للعلم من أثر فيما يودّون النّهوض به من تعميق الوعي بالذّات الوطنيّة لدى أفراد مجتمعهم وإعدادهم من ثمّ إلى التّحرير والاستقلال، فقادوا حملة واسعة ضدّ الجهل والأميّة ، وشرع روّادها أمثال الشيخ ابن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي وغيرهم في إلقاء الدروس في المساجد وفتح المدارس في مختلف أرجاء البلاد، فاستطاعت الجمعيّة أن تنهض بالتّعليم العربي على أساس من الكتاب والسنّة المطهّرة وربطه منهجا وموضوعا بواقع الأمّة وفي الوقت نفسه عملت على إحياء اللّغة العربية ونشرها وبثّ الثّقافة القوميّة وتطوير الأدب العربي والتّعريف بالتّاريخ الإسلامي وتطوّرت مدارس الجمعيّة حتّى أصبحت مركز إشعاع ثقافي بما كانت تحيي من احتفالات دينيّة وملتقيات فكريّة وثقافيّة كان العلماء يسهمون من خلالها في تنوير العقول ونشر التوعية الدينية والاجتماعية لمختلف فئات المجتمع الجزائري[71].كما لعبت الصحافة الإصلاحية دورا بارزا في مواجهة سياسات الطرقيّة وإرشاد المجتمع الجزائري وتوجيهه وشحذ همه فبعد تأسيس الجمعيّة استقام للفكر الإصلاحي طريقه فأصدر العلماء 04 صحائف أخرى بعد الشّهاب وجريدة الإصلاح ببسكرة بحيث كلّما كان الفرنسيّون يعطّلون لها صحيفة أصدرت أخرى مكانها وهي السنّة المحمّديّة[72] والشّريعة المطهّرة[73]، والصّراط السويّ[74] ثمّ البصائر التي طال عمرها من 1935 حتى 1939[75]، غير أنّ الأثر البالغ كان لمجلّة الشّهاب وجريدة البصائر لما احتوتاه من مواضيع كشفت واقع الفرد الجزائري السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي وتولّت أقلامهما مقاومة كلّ من سوّلت له نفسه المساس بمقوّمات المجتمع الجزائري وخصوصياته ووحدته وإلى جنب الحركة القلميّة كانت هناك حركة أخرى تسايرها وتؤازرها وتغذّيها وهي حركة التّعليم التي انتشرت بالمراكز المهمة من عمالة قسنطينة، فدروس العلم كانت تجتذب أفواجا من الشباب ودروس

الوعظ والإرشاد كانت تستقطب الجماهير إلى حظيرة الإصلاح وتحدث كلّ يوم ثغرة في صفوف الضّلال كما قال الشّيخ الإبراهيمي[76].

ونظرا لأهميّة النّوادي والجمعيّات الفنيّة والخيريّة رأى أقطاب الجمعيّة أنّ من أعظم وسائل الإصلاح لتكوين وحدة اجتماعيّة تخوّل المجتمع الجزائري حقّه المقدّس في الحياة هو تعميم النّوادي والجمعيّات في جميع أنحاء الوطن، كونها تعمل على تحسين المستوى العلمي والاقتصادي من خلال حصول التّعارف العام والودّ المتبادل[77] ،فأنشأت الجمعية وفي مدة قصيرة عشرات النوادي والجمعيّات في المدن والقرى وكان أبرزها: نادي الترقي،نادي صالح باي، النادي الإسلامي [78]، أمّا الجمعيات فتعدّدت كذلك كجمعيّة الشباب الفني والجمعيّة الرياضيّة القسنطينية وجمعيّة المؤاخاة السّكيكديّة [79]، وجمعيّة التّعليم وجمعيّة التّعاون المنزلي وجمعيّة الإسعاف والجمعيّة الدّينيّة الإسلاميّة وجمعيّة المؤاخاة الجزائريّة[80] ودعت إليها الشبّان فاستجابوا وأقبلوا عليها لأنها أقرب إلى أمزجتهم ولأنّ فيها شيئا من التّسلية والمرح، وفي ظل هذه الجواذب التقت الجمعية بالشبّاب وقامت بحق الله فيهم فنظّمت لهم فيها محاضرات تهذب بها أخلاقهم وتعرّفهم بأنفسهم وقيمتهم ومنزلتهم في الأمة وتجمع قوّتهم ودروسا تعلّمهم بها دينهم ولغتهم وتاريخهم، فكان لمشروع "النوادي والجمعيّات" آثار في الفئة الشابّة تساوي آثار المدرسة في الأطفال وتفوق آثار المساجد في الشيوخ والكهول ومن النوادي خرج الشبّان إلى المسجد يؤدّون حق الله ، وإلى ميادين العمل يؤدّون واجبات المجتمع .

ومن جهة أخرى اهتمّت جمعيّة العلماء بإحياء المناسبات الدينيّة كالاحتفال بالمولد النبوي الشريف وبليلة القدر وختم القرآن الكريم لأنّها لا تمثّل صورة من صور الوحدة الدّينيّة فحسب، بل الوحدة القوميّة والوطنيّة ،وقد كان الهدف من إحيائها في كلّ سنة حتّى يطول التّماسك بين أفراد الأمّة على مرّ الأزمنة والدّهور، وأنّ تعهّد المجتمع بإحياء هذه المظاهر من شأنه أن يبعد كلّ شيء قد يضرّ بتلك الوحدة التي هي رمز وطنيّة كلّ أمّة [81] من جهة والاستفادة وأخذ العبرة والعظة ومقاومة طغيان الظّروف من جهة أخرى .

الخاتمة :

لقد نجحت الجمعيّة وصحافتها في مشروعها النّهضوي والجهاديّ وفي مختلف الجبهات التي واجهتها من خلال نشر الإصلاح ومحاربة البدع والطّرق الصّوفيّة الضالّة عن الجادّة ،وتنوير المجتمع الجزائري وتعليمه وممانعة القوّة الاستعماريّة، فكانت حجر عثرة أمام كلّ من أراد هدم دعائم ومقوّمات الوطن الجزائري ،الذي بقي متمسّكا بأصوله وعروبته وإسلامه ووطنيّته ووحدته.

الهوامش:

[1] : الشّهاب : ج 3 ، م 11 ، 3 جوان 1935 ، ص 163

[2] : محمّد الصّالح الصّدّيق : شخصيات فكرية وأدبية هذه مواقفنا من ثورة التّحرير الجزائرية، شخصيّات فكريّة و أدبيّة " هذه مواقفنا من ثورة التّحرير الجزائريّة " ، شركة دار الأمّة ، الجزائر ، 2002 ، 109.

[3] : عبد الرحمان شيبان : مقدّمة مجلّة الشّهاب ، ط1، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 2000 ، ص 58.

[4] : أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 2، ط3، الجزائر ، 1986 ، ص 62-63

[5] : عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان : إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، شركة دار الامة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2010 ، ص32

[6] : البصائر : العدد 103، 16جانفي 1950.

[7] :أندري ديرليك : عبد الحميد بن باديس مفكر الاصلاح وزعيم القوميّة الجزائرية ، ترجمة مازن صلاح مطبقاني ، عالم الأفكار ، الجزائر ، 2013، ص 264

[8] :نفسه ، ص 266-267

[9] : عبد الرحمان شيبان : المصدر السابق ، ص 71.

[10] : تعني فيلق عسكري

[11] : عبد الرحمان شيبان : المصدر السابق ، ص 61

[12] : أندري ديرليك : المرجع السابق ، ص 225

[13] :رواه الإمام مالك في الموطّأ

[14] : أحمد بن نعمان . الهوية الوطنية . الحقائق والمغالطات ، دار الأمّة ، الجزائر ، 1996 م ، ص 43.

[15] : أندري ديرليك : المرجع السابق ، ص 276

[16] : البصائر : السّنة الأولى ، العدد 3، جانفي 1936

[17] :Jacques Carret : L'Association des Oulémas d'Algérie,Alem el Afkar , Alger , 2008 , p37

[18] : الشهاب : ج8، م12 ، نوفمبر 1936 ، ص 143.

[19] : تاريخ الجزائر المعاصرة : ترجمة عيسى عصفور ، ديوان المطبوعات الجزائريّة ، الجزائر ، 1982 ، ص143.

[20] : أبو القاسم سعد الله : **الحركة الوطنيّة الجزائريّة** ، ج3 ، ط3، الجزائر ، 1986 ، ص101

[21] : عبد الرحمان شيبان : المصدر السّبق ، ص 59-60

[22] : محمّد الأمين بلغيث : **تاريخ الجزائر المعاصر دراسات ووثائق** ، دار مدني ، الجزائر ، 2009، ص 118

[23] محمّد الميلي : **الشيخ مبارك الميلي (حياته العلمية و نضاله الوطني)** ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي 2001، ص 28.

[24] : **الشّهاب** : ع 1 ، م1 ، نوفمبر 1925 ، ص 10

[25] : الطيّب شارف : " **منهجيّة الدّعوة عند الشّيخ عبد الحميد بن باديس** " ، مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلاميّة تخصّص أصول الدّين (إشراف) د. الدرّاجي محمّد ، كليّة أصول الدّين ، جامعة الجزائر ، 1999 – 2000 ، ص 13

[26] : تركي رابح عمامرة : **التّعليم القومي والشّخصيّة الجزائريّة 1931 – 1956 دراسة تربوية للشخصية الجزائرية** ،ط2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، 1981، ص 93

[27] : **الشّهاب** : ج4 ، م9 ، مارس 1933 ، ص 188 -189

[28] : أبو العيد دودو : " الحركة الثّقافيّة في الجزائر المعاصرة " ، **مجلة الثقافة** ، ع 8 ، الجزائر ، ماي 1972 ، ص 47

[29] : الطيّب شارف : المرجع السّابق ، ص 13

[30] : **الشهاب** : ع4 ، م1 ، نوفمبر 1925 ، ص 97

[31] : احمد رمزي : **الإستعمار الفرنسي في شمال إفريقيّة** ، المطبعة النّموذجيّة ، مصر، ص 146

[32] : الطيّب شارف : المرجع السابق ، ص 18

[33] : تركي رابح عمامرة : **التعليم القومي** ، المرجع السابق ، ص 168

[34] : **الشّهاب** : ج1 ، م 11 ، المصدر السابق ، ص 10 – 11

[35] : Patrick Weil : op . cit , p 13

[36] : تركي رابح عمامرة : المرجع نفسه ، ص 168

[37] : **الشّهاب** : ع4 / م1 ، المصدر السابق ، ص 98

[38] : **الشّهاب** : ج8 ، م5 ، ربيع الثاني 1348 هـ / سبتمبر 1929 ، ص 25

[39] : **الصّراط السويّ** : ع3 ، السنة الأولى ، قسنطينة ، 25 سبتمبر 1933 ، ص 1

[40] : **البصائر** : ع90 ، السنة الثالثة ، قسنطينة ، 10 ديسمبر 1937 ، ص 08

[41] : الشّهاب : ع4 ، م 1 ، 16 جمادى الأولى 1344 هـ / 03 ديسمبر 1925 ، ص 77

[42] : الشّهاب : ج6 ، م7 ، جوان 1931 ، ص 357

[43] : الشّهاب ، ع4 ، م 1 ، المصدر السّابق ، ص 78

[44] : الشّهاب : ج3 ، م 13 ، 2 ماي 1937 ، ص 138

[45] : محمد بن سمينة : صفحات من إسهامات جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين في النهضة الحديثة ، دار مدني ، الجزائر ، ص27

[46] : محمد البشير الإبراهيمي : المصدر السابق ، ص32

[47] : عمار طالبي : ابن باديس حياته وآثاره ، ط1، الشركة الجزائريّة للتأليف والنشر ، 1968 ، ص ص466-467

[48] : **الشّهاب** : ع 4 ، م 1 ، المصدر السّابق ، ص 82

[49] : مسعود جبّاري : " **الفكر السّياسي عند الشّيخ عبد الحميد بن باديس** " ، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلاميّة تخصّص أصول الدّين ، إشراف د. محمّد درّاجي ، كليّة أصول الدّين ، جامعة الجزائر ، 2001 – 2002 ، ص 17

[50] : الطيّب شارف : المرجع السابق، ص 08

[51] : **الشّهاب** : ع 56 ، م 2 ، أكتوبر 1926، ص 346

[52] : **الشّهاب** : ع 15 ، م 1 ، مارس 1926 ، ص 314

[53] : **الشّهاب** : ع4 ، م1 ، المصدر السابق ، ص 78

[54] : نفسه ، ص78

[55] : **الشّهاب** : ج6 ، م 7 ، المصدر السّابق ، ص 400

[56] : **الشّهاب** : ع 56 ، م 2 ، المصدر السابق ، ص 11

[57] : العمّاريّة : من أبرز الطّرق الصّوفيّة في الجزائر و قد بلغ عدد مريديها حوالي 6000 ، و القادريّة : تنسب إلى الشّيخ محي الدّين الجيلاني المولود في مدينة جيلان بالعراق سنة 1079 م وانتقلت إلى إفريقيا وأسس الشيخ مختار الكبير زاويتها الكبرى في " مزارات " ثم انقسمت الطريقة بعد وفاته وقد قامت هذه الطريقة على العلم والدّعوة الدّينية ، ومن أهمّ رموزها الشيخ محي الدّين والد الأمير عبد القادر ويأتي تواجدها في الدرجة الثانية بعد الطّريقة = = الطيبيّة في عمالة وهران كما أنّ لها تواجد في بقيّة العمالات . **ينظر** : صالح عوض : صالح عوض : **معركة الاسلام و الصّليبية في الجزائر** ، ج1 ، الزيتونة للاعلام والنشر ، الجزائر ، 1989، ص 210 – 211

[58] : **الشّهاب** : ع60 ، م 2 ، 07 أكتوبر 1926 ، ص 396

[59] : نفسه ، ص 396

[60] : الطيّب شارف : المرجع السّابق ، ص 09

[61] : محمّد البشير الإبراهيمي : لمصدر السّابق ، ص 68

[62] : **الشّهاب** : ج 11 ، م10 ، أكتوبر 1934 ، ص 483

[63] : تركي رابح عمامرة : " مجلّة الشّهاب للشّيخ عبد الحميد بن باديس لسان الإسلام و العروبة و الوطنيّة في الجزائر 1925-1939 و دورها في نهضة الجزائر الحديثة " **مجلّة الذّاكرة** ، ع5 ، مجلّة الدّراسات التّاريخيّة للمقاومة و الثّورة الجزائريّة ، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، أوت 1998 ، ص 114

[64] : محمّد الصّالح الصدّيق : المرجع السابق ، ص 99

[65] : إبراهيم مهديد : **الدّور الإصلاحي و النّشاط السّياسي للشيخ محمّد البشير الإبراهيمي على نهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 – 1944** ، ط1 ، دار قرطبة ، الجزائر ، 2011، ص 22

[66] : عبد العزيز موهوبي : **رجال الإصلاح و الطّرق الصّوفيّة في الجزائر 1931 – 1954** ، مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التّاريخ الحديث والمعاصر، (إشراف). د الشّاوش حبّاسي ، قسم التّاريخ ، جامعة الجزائر ، 2011 – 2012 ، ص 91

[67] : **الشّهاب** : ج 9 ، م 5 ، ، أكتوبر1929 ، ص 11

[68] : عبد العزيز موهوبي : المرجع السابق ، ص 94

[69] : **الشهاب** : ج4، م13، جوان 1937 ، ص 178

[70] : عبد العزيز موهوبي : المرجع السابق ، ص 96

[71] : محمد بن سمينة : المرجع السابق ، ص ص 31-32

[72] : ظهر العدد الأوّل منها بقسنطينة في 01مارس1933م واستمرت 04أشهر صدر خلالها 13 عددا

[73] :صدر العدد الأول منها بقسنطينة في 17جويلية 1933 وتوقّفت بقرار من السلطات الفرنسية في 29أوت 1933

[74] :ظهر العدد الأول منها بقسنطينة في 11أوت 1933 وتوقفت بقرار من الادارة الفرنسية في 08 جانفي 1934

[75] : عبد المالك مرتاض : **المقاومة الوطنية في الجزائر 1830 – 1962**، ج1، دار هومة الجزائر ، 2009 ، ص 362

[76] : محمّد البشير الإبراهيمي : المصدر السابق ، ص 52

[77] : **الشّهاب** : ج4 ، م5 ، ماي 1929 ، ص 44

[78] : Ali Merad : **Le reformisme musulman en Algérie de 1925 – 1940(essai d histoire religieuse et social)** , les editions El Hikma , Alger , 2010, p 267

[79] : Ibid , p166

[80] : **الشّهاب** : ع13 ، م1 ، فيفري 1926 ، ص ص 259 – 315.

[81] : **الشّهاب** : ج5 ، م7 ، ماي 1931 ، ص 309